كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في لقاء حَولَ "رسالة معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في عالم اليوم"، وذلك نهار الجمعة في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، في تمام الساعة الخامسة من بعد الظهر، في مدرّج فرنسوا باسيل، في حَرَم الرياضة والابتكار.

دولة الرئيس حسين الحسيني،

السيّدة الأولى نايلة معوّض،

صاحب المعالي الأستاذ مروان حمادة، راعي هذا الاحتفال،

أصحاب المعالي والسعادة والآباء والأخوات الأعزّاء،

أيّها الأصدقاء،

أربع صفات حميدة لمعهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة يجدر ذكرها.

كما نعرف، بدأت الدروس تُعطى في قسم الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف في حَرَم كلّيّة الطبّ في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، والمؤسّسون كانوا، من الجانب المسيحيّ، الأب دوبريه لاتور اليسوعي والأب أندريه سكريما الأرثوذكسي من رومانيا والأب جون دونوهيو اليسوعي الأميركي، ومن الجانب الإسلاميّ الدكتور هشام نشّابة المعروف بمقاصديّته وأستاذ الإسلاميّات في الجامعة الأميركيّة ويوسف إبش الدمشقي في الجامعة الأميركيّة والأستاذ زكريّا النصولي نائب رئيس جامعة القدّيس يوسف بقرار من الأب دوكريبيه. كافح معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت خلال أربعين سنة، فاستطاع بنهجه التربويّ وبرؤيته الواسعة أن يستمرّ وأن يتجاوز السنوات بنجاح "لأنّه كما قال أحدهم، إستحقّ المعهد بحقّ، مستندًا إلى رسالته، رتبة جوقة الشرف لأنّه ترك ويترك الأثر العميق الإيجابيّ في طلاّبه وأساتذته وحياة الجامعة اليسوعيّة لا بل على المستوى اللبنانيّ والإقليميّ". فهو لوحده يختصر قناعة أساسيّة تعيشها الجامعة،

هي أن تكون المساحة التي تضمّ فئات المجتمع المختلفة، بالرغم من التوتّرات المستمرّة التي تفترضها وتثيرها التعدّديّة والإختلاف في المساحة الواحدة. وعندما أنظر إلى المعهد منذ نشأته حتّى اليوم، فإنّي أتوقّف عند صفات أربع بين صفات أخرى، طبعت بطابعها مسيرة المعهد أو أنّ هذه المسيرة الأكاديميّة والفكريّة هي التي أبدعت هذه الصفات عبر التزامها بالدراسات والعلاقات الإسلاميّة والمسيحيّة.

أولى تلك الصفات هي **الاستمراريّة**. نعرف أنّ فكرة المباشرة بدروس إسلاميّة مسيحيّة في إطار جامعي انطلقت من الأحداث الدمويّة التي كان يعيشها لبنان في العامين ١٩٧٥-١٩٧٦. فظاعة الحرب أظهرت إلى أيّ حدّ كانت الجماعات اللبنانيّة التي حاربت معًا من أجل الإستقلال تجهل بعضها بعضًا أو أنّها تتجاهل بعضها بعضًا، كما أنّ العصبيّة والاصطفافات المذهبيّة والأفكار السطحيّة المسبقة عند الواحد عن الآخر كانت تخفي ما تخفيه من العداوة والجهل والحذر المتبادل. في هذا الإطار، نظر البعض إلى ما يقوم به الفرسان **الستّة** نظرة إستهزائيّة ونظرة ريبة، وقالت بعض التعليقات إنّ ما عجزت عنه القوى الكبرى لحلّ الأزمة اللبنانيّة لن يقدر بعض المهووسين في الإسهام بأيّ شيء في إيجاد أرضيّة صالحة تقرّب بين أفرقاء الأزمة وأنّ المبادرة سوف تنتهي مع التعب الذي سيحلُّ على كواهل المبادرين. الواقع أنّ هذه المبادرة التي تحوّلت من دروس مشتركة إلى قسم دراسات إسلاميّة مسيحيّة ثمّ إلى معهد للدراسات الإسلاميّة المسيحيّة لم تتعب ولم تتحلّل، بل إنّها بقيت صامدة في فكرتها وحركتها. فهي لم تولد من عبثيّة أو من مجرّد تلاقي الأحداث، لا بل أنّ العنف والحرب والموت كانت المناسبة لوعي حقيقة دائمة ثابتة أنّ الجامعة لها دورٌ أكيدٌ ومستمرٌّ في إقامة اتّصال سليم وصادق في سبيل تعارف أصيل يكون الأساس المتين لإعادة بعض اللحمة الوطنيّة بين الأبناء المتباعدين. فبيروت مثّلت وتمثّل، على مستوى الأديان، مفترق طرق كانت المسيحيّة والإسلام يلتقيان فيه بحكم الطبيعة، إلاّ أنّ هذا اللقاء في زمن

الصراع السياسي والتلاعب بالمشاعر الدينيّة وإبراز الإختلافات الطائفيّة، لا يقوىَ وحده على البقاء صامدًا لمدّة طويلة على الطبيعة، إذ هو بحاجة، كلّ يوم من الأيّام إلى تدعيم وتأييد على أكثر من مستوى وخصوصًا على المستوى الفكريّ الأكاديميّ. من هذا المنطلق ومن هذه الحاجة بالذات، إنطلق معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة ليستمرّ في رسالة مثلّثة الأبعاد. **أوّلاً**: مقاربة متجدّدة للمسيحيّة والإسلام بعيدة عن الجدل العقيم على أرضيّة من الحقائق المشتركة التي تتيح التعارف المتبادل. **وثانيًا**: الانطلاق نحو الدراسات المشتركة لمختلف القضايا التي تواجه الأديان اليوم وخصوصًا المسيحيّة والإسلام في الشرق مثل قضايا المواطنة والعدالة والأخلاق والقِيَم الإنسانيّة الأساسيّة والموقف من الحداثة ومن ما بعد الحداثة. **وثالثًا**: إعداد الكوادر المتعلّمة ضمن مسارات ومناهج أكاديميّة متعدّدة تتيح إبداع ثقافة حواريّة منفتحة وكفايات مهنيّة صلبة لها قاعدتها المعرفيّة. والصدى الذي يرجع إلينا عن طلاّبنا إنّهم كمتخرّجين لهم المكانة والدَور في الدوائر التي يعملون فيها.

الصفة الثانية التي التصقت بمسيرة المعهد ولا تزال هي **صفة المشترك**. نحن نعلم أنّ الصوت المسيحي الذي يلقي محاضرة في الروحانيّة المسيحيّة على سبيل المثال، إنّما يلاقيه صدى صوت المسلم الذي يتحدّث أيضًا عن الصلاة والروحانيّة في الإسلام، وهذا أصبح قاعدة من قواعد التعليم في المعهد. الهام في هذا الموضوع ليس فقط مبدأ أنّ الإسلام، في مختلف قضاياه، إنّما يتحدّث عنه الأستاذ المسلم، والمسيحيّة يتحدّث عنها الأستاذ المسيحي. الأهمّ هو إعادة البناء معًا لديناميّة فكريّة وبحثيّة وإجتماعيّة مشتركة حلّت محلّها لغة العنف والدمار واليُبس الأخلاقيّ والفكريّ. لا أعتقد أنّ هناك نموذجًا يحتذى به في هذا المجال قد وجد في الماضي قبل انطلاقة المعهد، ربّما حدث شيءٌ ما أيّام العبّاسيّين وبيت الحكمة إلاّ أنّ الجدل والكلام هما الذين كانا سائدين . ما ترقى إليه فكرة المعهد هو إعطاء لبنان، وعلى الأقلّ، ولنكن متواضعين، الصحّة الأخلاقيّة والديناميّة الفكريّة التي نحن بأمسّ الحاجة إليها. كلّ مرّة تصبح

الصحّة الخُلُقيّة عليلة والقدرات الفكريّة ضئيلة أمام مدّ مجتمع الإستهلاك المتوحّش وأمام العصبيّات القاتلة، يندلع العنف الأعمى على الحجر وعلى البشر كما نرى في ظاهرة الجهاديّة الإرهابيّة التكفيريّة. المشترك يقود إلى وعي الذات لذاتها، إنّما نعرف مع هيغل وبول ريكور أنّ لا وعي للذات إلاّ عبر الآخر الذي يعرفني ويعترف بحقيقة وجودي. وبالتالي يصبح المشترك ظاهرة إنسانيّة جوهريّة تؤسّس للتناغم والتفاهم والتآخي بين البشر. هذا المشترك لا يستطيع أن يبقى وأن يثبت كعمل وديناميّة ووجود إلاّ بسياسة الخطى المستمرّة والعمل المستمرّ صوب غايات مُشتركة إذ هنالك إقتناع مشترك بأنّ هذه الغايات هامّة وأساسيّة. من الجيّد أن نستعيد فكرةً تأسّس عليها معهد الدراسات الإسلاميّة : إنّه ليس مؤسّسة أكاديميّة للحوار الإسلاميّ المسيحيّ ولهذا الحوار مؤسّسات وجمعيّات وتجمّعات عديدة. المعهد يقوم بتدريس الموادّ المشتركة لطلاّب مسيحيّين ومسلمين، وذلك لتأسيس أيّ حوار على قاعدة صلبة واضحة خصوصًا تلك المواد والدروس التي من شأنها تجاوز الصُوَر المنمّطة والمهمّشة التي تصوّر الآخر على غير حقيقته. المشترك هو دعوة إلى الشراكة الفكريّة والوطنيّة بين فرقاء وإن تباعدوا فإنّهم لا يقدرون أن ينسوا أنّ إرادة العيش معًا تفرض عليهم أن يجدّدوا دومًا معاني الشراكة. المشترك هو المساحة التي لا تخلو من نهج نقديّ مقارن ونقدي لبعض المسلّمات التي نتصوّرها حقائق وهي كذلك. الدخول إلى هذه المساحة المشتركة يتطلّب شيئًا من الشجاعة والقدرة على تحمّل المناقشة والرأي الآخر الذي ربّما يزعزع بعض اقتناعاتي التي لم يصادف أن وضعتها في الميزان. في هذه المساحة، الإصغاء هو قيمة، والكلام الهادئ القائم على الفكر هو قيمة، واحترام رأي الآخر هو قيمة، التضامن أحيانًا مع الآخر المختلف هو قيمة والصداقة التي تنشأ هي قيمة، وفهم عقيدة الآخر، بالرغم من قبولها، هي قيمة وهذه كلُّها تشكّل قِيَمًا مشتركة تؤسّس لعلاقة ما دينيّة قويّة وتعزّز متانة المساحة التي يعيش عليها الجميع. أجرؤ أن أقول إنّ هذه المساحة ربّما أصبحت نموذجًا يحتذى به، إلاّ أنّه علينا أكثر من أيّ وقتٍ مضى العمل

على تقوية مكانة هذه المساحة المشتركة في وقت ما زالت الجدران ترتفع بين الأفرقاء المختلفين مذهبيًّا وسياسيًّا. يكفي أن نرى التعليقات على شبكات التواصل الإجتماعيّة بين الناس العاديين وبين الشبيبة لنرى كم أنّ المساحة العامّة المشتركة تتقلّص وكلُّ واحدٍ يرى في نفسه القيمة ومصدر القيمة في حين أنّ الآخر هو مصدر الشرّ المستطير. مستقبل المعهد أكاديميًّا وإجتماعيًّا يكمن في أن يكون مساحة نموذجيّة للعيش المشترك الذي نتغنّى به والذي لا قيام له من دون أسس متينة هي تلك القِيَم المشتركة في حدّها الأدنى.

وأنتقل إلى صفة ثالثة أطلقت عليها اسم **الواقعيّة**. فالمعهد في رسالته له صفة النبويّة، بمعنى أنّه دعا ويدعو للتغيير وإلى التحرُّر من الأفكار المُسبَقَة المتبادلة حيال الآخر وإعداد أساتذة في تهذيب العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة وتطويرها. إلاّ أنّ المعهد هو واقعي في رؤيته لواقع الحال حيث إنّ الطلاّب لن يتهافتوا بأعداد كبيرة لمتابعة برامج المعهد وتبّين لاحقًا أنّ العديد منهم يسألون عن الفائدة من الدبلوم على الصعيد المهني وإذا كانت شهادات المعهد لها قيمتها في المسارات الأكاديميّة. لذلك تمّت إعادة تشكيل المناهج المدرّسة في قالب الإجازة في مسارات متعدّدة والماستر أو الماجستير إلى الدكتوراه. إلاّ أنّ المعهد أبقى الباب مفتوحًا أمام الطلاّب الذين يريدون الاستفادة من موادّ معيّنة في أرصدة محسوبة لمن يريد الذهاب صوب دبلوم الإجازة أو الماستر. المعهد واقعي في تقييمه للواقع اللبنانيّ والعربيّ والإسلاميّ الذي يُحرّكه الإصطفاف المذهبي والطائفي الملوّن بألوان الشحن السياسي ذي الغايات المعروفة واللامعروفة. المعهد واقعي عندما يرى سلوكيّات بعض المجتمع ضدّ بعض المجتمع الآخر، عندما تُقضَم أراضي أحد الأفراد من طائفة معيّنة لصالح فرد آخر من طائفة أخرى، وكذلك عندما تُفرض خوّات على تجّار لأنّهم من جسم إجتماعيّ معيّن. نعرف جميعًا النظريّة التي تقول إنّ الذين خسروا الحرب عسكريًّا تحوّلوا إلى منتصرين معنويًّا بحيث إنّ الانفتاح على الآخر ليس همّهم الأوّل بل الإنكفاء على الهويّة الذاتيّة المشكّلة من إنغلاق للآفاق وتأكيد للإنتماء الإجتماعي

الضيّق ونجحوا في أخذ العديد من الناس صوبهم. وأمّام موجات الهجرة المسيحيّة والمتلاحقة وأمام تيّارات التكفير الناشطة وأمام الأزمة السنيّة الشيعيّة، يضعف دَور المعهد في الظاهر إلاّ أنّه في الخفاء يبقى على قناعة في الأساتذة والمديرين والمنسّقين فيه بأنّ التربية على قواعد الحوار هو الطريق الأفضل إلى البناء الإجتماعي الواحد. إنّه واقعي بأن لا مستقبل لبناء المجتمع إلاّ بالحوار عندما يرى تشكّل وتأسيس العشرات من التجمّعات التي تعمل على تنشيط الحوار الإسلاميّ المسيحيّ والإسلاميّ الإسلاميّ وما بين الأديان وتفعيله على أرض الواقع المتعَب. وعندما صدر النداء البابوي في السنة ١٩٩٤، "رجاء جديد للبنان"، رأى فيه المعهد ومؤسّسوه تتويجًا لعملهم الدؤوب منذ السنة ١٩٧٧ وانعكاسًا فاعلاً للبذار الذي بذروه طيلة ذلك الوقت. يفرح المعهد عندما يرى مؤتمرات وندوات تتناول أدقّ المواضيع الهامّة لإنسان اليوم مثل الحريّة الدينيّة والمواطنة والنصّ الديني والأخلاقيّات المهنيّة والطبيّة، وما مؤتمر الأزهر الشريف في آذار الماضي سوى تأكيد على أهميّة رسالة المعهد في ظروف ليست الفُضلى. فعندما يعلن أحدهم في ذلك المؤتمر: "إنّ الرجاء ينبع من قدرتنا على العيش معًا وعلى احترام هذا العيش في مختلف الوسائل المكتوبة والمرئيّة والوطنيّة وحتى في المراجع العقائديّة لكلّ جانب"، إذ ذاك يقف المعهد مستعدًّا لتطوير تفكيره في ملائمة مناهجه وأبحاثه ومنشوراته كوثائق للحوار الإسلاميّ المسيحيّ مع هذا النداء حول مصدر الرجاء للمسيحيّين والمسلمين معًا.

أمّا الصفة الرابعة والأخيرة أدلّ عليها بكلمة **التجدُّد**، وقد رأينا كيف أنّ المعهد استطاع أن يجدّد نفسه وبرامجه مع الواقع ومع المتغيّرات التي حدثت وتحدث في بلادنا. صحيح أنّ أحد مصادر المعهد الفكريّة هو نصّ المجمع الفاتيكاني الثاني في وثيقته حول علاقات المسيحيّة والإسلام واليهوديّة والديانات الأخرى والتي تبدأ بكلمة "في زمننا الحاضر" وكأنّ زمن التفكير في العلاقات ما بين الأديان، خصوصًا بين المسيحيّة والإسلام هو موضوع حاضر أمامنا في

كلّ حال وحين. وثيقة الكنيسة الكاثوليكيّة استُكملت وتُستكمل بلقاءات متعدّدة نذكر منها لقاءات أسيزي التي بدأت مع يوحنّا بولس الثاني واستمرّت مع بندكتوس السادس عشر والبابا فرنسيس الأوّل. لا شكّ أنّه ينبغي قراءة معاني هذه العلامات المضيئة بحيث نفيد منها لتغذية رسالة معهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة. إنّها رسالة أكاديميّة من ضمن برامج أكاديميّة تستقي مقوّماتها من أدبيّات المسيحيّة والإسلام والأديان الأخرى في ما يخصّ أسس العلاقات بين بعضها بعضًا، فمن الطبيعي العمل على تجديد محتوى هذه البرامج وكذلك العمل على توسيعها باتّجاه المزيد من الطلاّب والشبّان كما هو الأمر في الجامعة حيث تمّ توسيع حلقة المستفيدين من برنامج التنشئة على الحوار الإسلامي المسيحي، وكذلك السعي إلى إضافة برامج أخرى في مجال العلاقة في مواضيع محدّدة مثل العنف والسلام في الدين، والأخلاق الطبيّة وحقوق الإنسان والعدالة والمهجّرين وغير ذلك من المواضيع الراهنة. أقول أيضًا إنّه يحقّ التساؤل عندما نسمع البعض ومنهم من العلماء المسيحيّين والمسلمين، يقولون إنّ لا جدوى من الحوار على المستوى العقائديّ إذ إنّ الاختلافات عميقة ومنطلقات كل دين هي على نقيض الآخر. أجيب وفي ذهني أن أقترح ذلك على المعهد بمسؤوليه وأساتذته أنّ هناك الكثير من المواضيع العقديّة تتطلّب منّا التفكير سويّة بحريّة كبيرة واحترام متبادل ليفهم كلّ واحد موقف الآخر. فكما أنّنا نتحدّث عن القِيَم المشتركة وأحوالها في المراجع الدينيّة، ينبغي لنا أن نبحث عن الروحانيّة المشتركة أو على الأقل عن أصول تلك الروحانيّة وكذلك عن مقاصد الدين في المسيحيّة والإسلام. فالمعهد، إذ هو مساحة مشتركة، إنّما هو مساحة للتفكير حتى في أشدّ المواضيع دقّة وأهميّة لأنّ في ذلك فائدة كبرى ومبعثٌ أيضًا للرجاء.

ففي الأربعين يبلغ الإنسان كماله حكمة وقامة ورسالة ومعنى لحياته ووجوده وكذلك الأمر بالنسبة للمؤسّسات ومنها وحتى وهي صغيرة إنّما رسالتها ومعنى وجودها هو بحدود الأمم والأوطان والأديان. المعهد يبدأ مع نهاية الأربعين الأولى، أربعين سنة جديدة في خدمة الفكر

الإسلاميّ المسيحيّ. وهو مدعو أن يصبح ذلك القطب والمِحور في قلب لبنان ولبنان هو قلب الشرق وبالتالي يكون هذا المعهد نوعًا ما وبتواضع مؤسّسيه مثلاً للشرق في مجال العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة.

وليكن الرابع عشر من شهر تشرين الثاني كلّ سنة يوم ذكرى المؤسّسين لمعهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة نسترجع فيه زخم إرادة التأسيس للقاء الآخر القريب البعيد والتعرّف إليه ونجدّد فيه الوعد بأن نسنمرّ في تدعيم رسالة المعهد وتجديدها. معًا بدأنا ومعًا نستمرّ.

عاش معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف،

عاش لبنان.